المحاضرة الرابعة

الأستاذ عدنان فوضيل

- مدارس الأدب المقارن: المدرسة السلافيّة

ظهر "المنهج السلافي (الروسي)" أو "الأوروبي الشرقي" أو "الماركسي" في النصف الثاني من القرن العشرين، وقد تأخر ظهوره لأنّه كان محتقرا، حيث عُدّ من العلوم البرجوازية التي يجب ألا تمارس في دول اشتراكية. وبعد أن أزيل الستار بين أوروبا الشرقية والعالم ظهر مقارنون من تلك الدول، فنهضت مقارناتهم على دعائم المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية. لهذا فضل بعض الباحثين اسم "المدرسة الماركسية" أو "المادية الجدلية" على اسم "المدرسة السلافية" أو "المنهج السلافي"[1].

ترفض المدرسة السلافيّة إذن الفلسفة الوضعيّة وتتبنى الفلسفة الماركسيّة، لأنّها ولدت من رحمها «فمن المعروف أن الفلسفة الماركسية باعتبارها فلسفة مادية ديالكتيكية تاريخية، قد انتقدت الفلسفة الوضعية ورفضتها بشدّة، وعدتها اتجاها فلسفيا بورجوازيا. ولا عجب في ذلك، فالماركسية هي وريثة فلسفة هيجل الجدليّة، وهي فلسفة تملك نظرة شمولية إلى الكون

[1]– ينظر: يوسف بكار وخليل الشيخ: الأدب المقارن، ص86.

والمجتمع والثقافة والأدب، وهي ترى أن التطور التاريخي ليس عشوائيا بل هناك قوانين وقواعد تتحكم فيه وتوجهه، وعلى رأس تلك القوانين قانون الصراع الطبقي...»[2].

و«ينطلق هذا المنهج من "الموضوعة الماركسية" التي ترى أن الأدب جزء من "البناء الفوقي" للمجتمع، وهو بناء إيديولوجي يقف إزاءه "بناء تحتي" (اقتصادي، اجتماعي) تربط بينهما صلّة تأثير، وهي ترى أن الواقع الاقتصادي والاجتماعي هو الذي يتحكم في الإنتاج الأدبي ويحدّد أشكاله ومضامينه، فإن كان هناك مجتمعين متقاربين في التطور، فإن هناك تشابه بينهما حتى وإن لم تقم بينهما علاقة تأثر وتأثير، ومن ثم يجب البحث عن الواقع الاقتصادي والاجتماعي عند كلّ منهما...»[3].

فهي تؤمن بأن هناك علاقة جدليّة بين الظواهر الأدبيّة وبين البنية الاقتصاديّة والاجتماعيّة للمجتمع، أي بين البناء الفوقي الذي تشكله الثقافة والأدب، وبين البناء التحتي الذي يمثّله المجتمع (الواقع الاقتصاديّ والاجتماعيّ)، وفي نظرتها إلى العلاقة بينهما، فإنّها ترجح البناء التحتي، إذ ترى فيه الطرف الرئيسي في المعادلة، فهو الذي يتحكم في البناء الفوقي أي في الثقافة والأدب ويحدّد مسارهما.

---

[2]– عبده عبّود: الأدب المقارن – مشكلات وآفاق، ص 38.

[3] – يوسف بكار وخليل الشيخ: م. س، ص. ن.

لذلك نجد أن «الأدب من وجهة نظر ماركسية، جزء من البناء الفوقي للمجتمع، يواكبه ويتطور بتطوره، ولذا فإن دراسة الأدب لا يجوز أن تتم بمعزل عن دراسة المجتمع والتطورات الفنية والفكرية التي تظهر في الأدب، لا يجوز أن تدرس بمعزل عن دراسة التطورات الاجتماعية. فالتطور الأدبي لا يتم بفعل العوامل الأدبية الداخلية وحدها، بل وبفعل تفاعل الأدب مع المجتمع وتعبيره عما يجري فيه من تطورات.

إن تفسير الظواهر الأدبية الهامة، كنشوء وتطور الأجناس والتيارات الأدبية لا يكون بإرجاعها إلى أسباب أدبية داخلية فحسب، بل بربطها بالمسببات الاجتماعية التي أحاطت بنشوئها وتطورها»[1]. أي أن دراسة الأدب تحتاج إلى دراسة العوامل الداخليّة (الجماليّة) والعوامل الخارجيّة (الاقتصاديّة والاجتماعيّة) معا.

ومن رواد المدرسة السلافيّة نجد "ديونيز دوريزين" و"هنريك ماركيفيتش" و"الكسندر ديما" و"روبرت فايمن" و"فيكتور جيرومتسكي"[2] الروسي الذي يعد أبرز ممثلي هذه المدرسة، وقد أجرى في الثلاثينيات والأربعينيات دراساته المقارنة حول "الملاحم البطولية الشّعبية"، ولم ينح في أبحاثه منحى دراسات التأثير والتأثر الفرنسية، بل نحى منحى آخر ينسجم مع جوهر الفلسفة الماركسية التي استوحى منها "نظرية التشابه النمطي" أو "التيبولوجي"

---

[1] – عبده عبّود: الأدب المقارن – مشكلات وآفاق، ص 38 – 39.

[2] – ينظر: يوسف بكار وخليل الشيخ: الأدب المقارن، ص 86.

التي تُرجع أوجه التشابه إلى مستويات تطور المجتمعات، فالمجتمعات التي بلغت بناها الاجتماعية مستويات متشابهة من التطور تتشابه أيضا في بناها الأدبيّة، أما المجتمعات التي تتفاوت درجات تطورها، فإن بناها الأدبيّة تتفاوت أيضا[1]. فهو يرى أن التشابهات الأدبيّة مرتبطة بالبنيّة الاجتماعيّة المتشابهة...

وعندما التقى الثلاثة "ف. ناركيرير" و"أو. تروستشكو" و"ن. ي. بالاشوف" أثناء إلقاء مداخلاتهم في المؤتمر الخامس للجمعية العالمية للأدب المقارن، دعوا إلى ضرورة ربط المقارنة الأدبية بالمكوّن الاجتماعيّ لهذا الأدب[2]. بهذا أصبح الأدب مرتبطا بعلم الاجتماع (السوسيولوجيا).

وقد اقترح "الكسندر ديما" تقسيما عاما للدرس إلى ثلاثة ميادين متميّزة[3]:

أ- العلاقات المباشرة بين الآداب، ذات المناخ الوطني، بعناصرها المحدّدة، ومشاكل التأثيرات والمصادر؛

ب- دراسة الموازنات خارج العلاقات والتأثيرات والمصادر؛

ج- دراسة الطوابع الخاصة لمختلف الآداب، كموضوع للمقارنة.

---

[1] - ينظر: عبده عبّود: م.س، 42 – 43.

[2] – ينظر: سعيد علوش: مدارس الأدب المقارن – دراسة منهجية، ص132.

[3] - سعيد علوش: مدارس الأدب المقارن – دراسة منهجية، ص 133.

وتهتم المدرسة السلافية «بتلقي وإرسال مضمون الرسالة في شتى جوانبها الجمالية والنقدية والنظرية الأدبية العامة»[2] فهي إذن تهتم بجمالية الأدب وبالنقد الأدبي. وقد صرح «أ. دوميزيل E. Dumezil في مقاله الفلسفي حول مبدأ النظم وأشكاله قائلا: قبل البحث عن المؤثرات الأدبية التي نما في ظلها خيال شعب معين، وعن الدور الذي ساهم به هو الآخر في تطوير أمم أجنبية، نشعر بضرورة البحث في الدور الذي قام به النظم في التاريخ المقارن للآداب»[3]، أي الدعوة إلى البحث عن النظم في الأدب المقارن قبل البحث عن المؤثرات.

ولا تتخلى «المدرسة السلافية عن التشديد على الخصوصية الوطنية في حديثها عن الدرس المقارن، لأن أهمية هذا الدرس تتحدّد في تقدير نزعة الأدب الذي يستهدف الكشف عن جوهر الفن كظاهرة»[4].

ومن **خصائص المدرسة السلافيّة** نجد[5]:

أ- أثر السياسي في الأدب المقارن؛

ب- النزعة إلى الآداب الوطنية وخصوصياتها كالمنهج الفرنسيّ؛

---

[2] – م. ن، ص132.

[3]– بير برونيل وأ. م روسو وآخرون: ما الأدب المقارن؟ ص 236.

[4]– سعيد علوش: م. س، ص134.

[5] – يوسف بكار وخليل الشيخ: الأدب المقارن، ص87.

ج- الاعتقاد بالمادية الجدليّة التاريخيّة؛

د- النزعة الإنسانية نحو الحقيقي في الإنسان؛

ه- النزوع إلى رسم معالم اجتماع الأدب المقارن؛

و- نزوعه "النقدي" العام جعله في موقع وسط بين "جماليّة" المنهج الأمريكيّ و"تاريخيّة" المنهج الفرنسيّ.

تهتم المدرسة السلافيّة إذن بالتاريخ كالمدرسة الفرنسيّة، إلا أن أهداف ونتائج كلّ منهما مختلفة، فإذا كانت المدرسة الفرنسيّة التقليديّة تستعين بالمنهج التاريخي لإثبات ثنائية التأثر والتأثير، فإن المدرسة السلافيّة أو الروسيّة تستعين به لإثبات دور المجتمع والصراع الطبقي في تشكيل الأدب بمختلف أجناسه...

و«تموضع المدرسة السلافية بين التاريخيّة والنقديّة وتبنيها لتداخل الاختصاصات يجعلها تنفتح أكثر فأكثر على مستجدات الحياة العقلية، ونكاد نجزم بأن هاته المدرسة تحقق ما لم تستطع المدرستان: الأمريكية والفرنسية إنجازه، كلّ منهما على حدة، وتحقق بداية المشروع الكبير والذي يجمع بين معالجتي المدرستين السابقتين، دون أن تتخلى عن نقد أوجه

الضعف في المدرستين»[1]. فالمدرسة السلافيّة إذن تجمع بين المدرستين: المدرسة التاريخيّة الفرنسيّة، والمدرسة النقديّة الأمريكيّة.

[1] – سعيد علوش: مدارس الأدب المقارن – دراسة منهجية، ص139.